مجلة إشكالات في اللغة والأدب — مجلد: 11 عدد: 1 السنة: 2022
ص: 577 - 595 — E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

الشخصيات المرجعية بين سلطة الموروث الثقافي وإلزامات المستعمِر.

Referential Characters Betwen the Autority of Cultural Legacy and the Coloniser's Inflictions.

Kabene Fariza[1] /[1] **كابن فريزة***

Salah Yousuf Abdelkader[2] /[2] **صلاح يوسف عبد القادر**

مخبر دراسة نظرية وتطبيقية معمقة لتطبيق النظام التعليمي الجديد LMD الجامعة الجزائرية بهدف تكوين أقطاب جامعية مندمجة.[1]

مخبر الممارسات اللغوية[2]

جامعة مولود معمري تيزي وزو، (الجزائر).

Mouloud Mammeri University of Tizi-Ouzou, (Alegria)

Kabenefariza88@gmail.com[1] / dr.salahwad.1947@gmail.com[2]

تاريخ الإرسال: 2021/06/28	تاريخ القبول: 2021/09/22	تاريخ النشر: 2022/03/02

ملخص البحث

نروم من خلال هذه المداخلة دراسة عنصر الشخصية في رواية "نوم العادل" في ضوء السيميائيات السردية التي عنيت بدراسة الشخصية في رحلة بحثها عن قضايا المعنى، استنادا إلى مقاربة فليب "هامون" التي جعلت الشخصية حالة خاصة بنشاط القراءة، يتزامن بناؤها مع فعل القراءة ولا يكتمل معناها إلاّ مع نهايته وجاء تركيزنا على فئات الشخصيات، وبالتحديد الشخصيات المرجعية التي استقت وجودها وملامحها، وبعض جوانبها من تناقضات الواقع الجزائري، فعبّرت عنه واختزلت في مجملها الصراع الذي يحتدم في الذات الجزائرية، وما تعايشه من تشظٍ وتمزّق بين سلطتان هما سلطة الموروث الثقافي المحلي وسلطة الآخر الفرنسي.

الكلمات المفتاح: فئات الشخصيات– بطاقة دلالية — مرجعية– موروث ثقافي– سلطة الآخر.

Abstract :

This work explores characterisation in Mouloud Mammeri's novel, The sleep of the just, using Narrative Semiotics- a theory concerned with issues of meaning by studying characterisation. I have drawn on Philips hamon's approach which regards a character as a state of process of reading whose making coincides whith the act of reading, and whose significance is only completed at end of reading.I have focused on character categories, specifically the "referential character",whose existence and aspects have been inspired by the contradiction of Algerian topos of Mammeri's time. These character-type represent those realities and summarise the contradictions of the Algerian person, its fragmentation and its

* كابن فريزة:Kabenefariza88@gmail.com

tearing apart between two forces, that of the native cultural heritage and that of the authority of the French other.
Keywords: Character categories - semantic tag - reference - the referential characters- cultural heritage - authority of other.

المقدمة:

نتج عن الحرب العالمية الثانية واقع مغاير لما عرفه الشعب الجزائري، ولا سيما بعد مجازر ثامن من مايو من سنة 1945 التي قلبت الموازين في الأوساط الجزائرية على جميع المستويات وضمنها المستوى الأدبي والفكري، حيث أكدت هذه المجازر إلى جانب الممارسات التعسفية التي سبقت هذه الفترة، فشل شعارات المساواة بين الجزائريين والفرنسيين، أو بالأحرى استحالة تجسيدها على أرض الواقع، وهو ما سمح بانتشار الوعي في الأوساط المثقفة بعدما سادت لفترة كتابات تؤمن بفكرة التعايش مع الآخر، الفرنسي وتمجد فكرة الاندماج مع مستوطنيه وتشيد بفضله على البلد إلى حدّ الذوبان في كيانه على حساب الهوية الجزائرية.

لم يعد إذن وجود لتلك الكتابات بعد أن تبين أخيرا أنَ الهوة بين المستعمِر والمستعمَر لا يمكن ردمها ببساطة، إذ ظهرت كتابات جديدة لجيل جديد من الكتاب الجزائريين توسّلت السرد سبيلا لفضح انتهاكات المستعمر الفرنسي، وعرض ما يمارسه من أشكال القهر وألوان العذاب بسكان البلاد الأصليين من أجل تنوير الذات الجزائرية التي عانت تمزّقا بسبب الواقع المرّ الذي اصطدمت به، بعد أن تبيّن زيف وعود الحرية والمساواة التي تعلّق بها أغلب الجزائريين الذين شغفهم الاستقلال والتخلص من فرنسا.

شكلت رواية "نوم العادل" لـ"مولود معمري" أنموذجا حيا لهذا النوع من الكتابة، وعبرت عن روح جديدة في الكتابة التي تحاول التسلّل إلى أعماق الشعب، وتصور معاناة الأهالي في القرية القبائلية وما يلاقونه من تعسف وظلم على أيدي المستعمر، فراح الكاتب بروحه القومية العالية و حسه الوطني يزيل القناع عن الوجه الآخر للمستعمر الذي تخفى وراء مبادئ الحرية والمساواة، لذلك اعتمد في عملية بناء شخصياته، على جملة من المعطيات التاريخية والاجتماعية التي أفرزها الواقع الجزائري في فترة الاحتلال الفرنسي. حاولنا استجلاءها، انطلاقا من مقاربة "فليب هامون" التي ساعدتنا في عملية القراءة والتأويل وزودتنا بأسس أتاحت لنا فرصة مقاربة شخصيات النص موضوع الدراسة والكشف عن المرجعيات التي يتّكئ عليها.على هذا الأساس، تتمحور إشكالية بحثنا حول الأسئلة التالية:

– ما هي مرجعيات بناء الشخصية في رواية 'نوم العادل" لـ"مولود معمري"؟

– كيف عبّرت شخصيات الرواية عن ما تعايشه الذات الجزائرية من تمزّق، بسبب الواقع القبلي الذي تصطدم به وما يلحق بها من تعسّف وظلم من قبل الآخر المستعمر الفرنسي؟كيف اختزلت هذه الشخصيات على تعددها، ما يعتمل في المجتمع الجزائري من تناقضات؟.

أوّلا: الرواية والمرجعية الواقعية:

تجري أحداث رواية "نوم العادل" خلال الحرب العالمية الثانية، إبان الاحتلال الفرنسي للجزائر في قرية تدعى بـ"إغزر" بمنطقة القبائل. رغم أن الإطار المكاني الرئيس الذي دارت في جنباته أحداث الرواية هو القرية القبائلية إلا أنّها تتعداه إلى البعد الوطني لتعبّر عن واقع الذات الجزائرية، فما قرية "إغزر" إلا عينة من بين عينات كثيرة لقرى جزائرية أثقل كاهل سكانها مجتمع قبلي بسطوة تقاليده وأعرافه البالية التي لا تتيح مجالا للرفض، واستعمار فرنسي بجوره وظلمه.

وما لاشك فيه أنّ الرواية ليست تقنية وحسب، بل قوتها وأهميتها في طروحاتها الفكرية والقضايا الإنسانية والفكرية والاجتماعية والأدبية التي تعالجها[1]. إنّ لغتها تنتجها أبنية النص وعلائقه الداخلية وهي وإن كانت تتميز بطابعها الحكائي، فإنّها لا تقطع صلتها بالواقع (...)وهو ما يجعلها تتميز ببعدين أساسيين: أولهما جمالي ينبثق من أنساق النص الداخلية، وثانيهما واقعي يتولّد من العلاقة الجدلية القائمة فيها والمجتمع[2]، وبما أنّ الشخصية عنصر أساس في تشكيل البنية الروائية فهي تسهم بشكل أو بآخر في نقل هذه العلاقة وإيصالها إلى القارئ، إنّها المحرك الأساس الذي يقوم «بتحريك الحدث القصصي وتفعيله وحمل مقولته وتأكيد حضوره في العمل الروائي، وتنهض بدور مهم في ملء الفعل السردي بالمعنى والقيمة والفنية والحركة»[3]وقد تشكل وجها من وجوه الشخصية في المجتمع مهما بلغت درجة الخيال عند الفنان هذا الأخير بصفته أشد الناس إحساسا بهموم قومه، ينطلق دون سابق إنذار نحو إنشاء عوالمه السردية الخاصة التي تعيد صياغة الواقع في نسيج نصي يختزل آلام وآمال أفراد مجتمعه.

يصوغ المؤلف فضاء مسار حكايته من موارد العالم الفسيفسائي، لكنّه يحاول أن يتحرّر من أي انعكاس ميكانيكي للواقع المعيش، و يوظّف معطياته على كثرتها توظيفا ذاتيا من خلال تفكيكه وخلخلة علائقه وأبعاده لإعادة توزيعه وتشكيله وبنائه لينشئ معناه الخاص الافتراضي[4].

يتسع الفضاء الروائي في" نوم العادل" لنوع من «التوليد والتكثيف الحكائي على اختلاف مساراته ومستوياته وتشظيه وتعبيراته الاحتمالية والمتخيلة والواقعية»[5]ليمكننا من قراءة الواقع الجزائري إبان الاحتلال

الفرنسي بتباياته ووجوهه المتعدّدة، بتعدّد مواقع الشخصيات التي بلغت« درجة التفرد في حضورها الفني فهي مستمدة من الواقع، ولكنها تختلف عنه، إنها تشكل بديلاً فنياً للشخصيات الواقعية تعكسها وتتجاوزها بل إنها تعبر عنها ليس كشخصيات فقط، وإنما كفئة بل وطبقة، إنها تساعدنا على قراءة وفهم العام من خلال الخاص، فهي تمتلك القدرة على التعميم وإعطاء صورة موضوعية مطروحة بصيغة فنية عن الحركة الاجتماعية في ظرفها التاريخي الذي تعيشه»[6]، إذ نقلت لنا جوانب من الواقع وعبرت عن التمزق النفسي الذي تعايشه الذات الجزائرية بسبب الواقع القبلي الذي تصطدم به، وما يلحق بها من تعسف وظلم من قبل الآخر المستعمِر. قسمها الكاتب إلى ثلاث شخصيات رئيسة:

- الأب.
- الابن الأوسط "أرزقي".
- الابن الأصغر"سليمان".

حملت هذه الشخصيات مستويات فكرية وردودا فعلية متباينة إلى جانب شخصيات أخرى ثانوية، وإن تفاوتت نسب حضورها في السياق النصي؛ لأنّ تحديد الشخصيات الرئيسية في الرواية لا يعني بتاتا إلغاء دور الشخصيات الأخرى، فقد أعطتنا صورا ونماذج تعج بالتبعية والتمرد والثورة على التقاليد وضد المستعمر والوعي بسياسته وغيرها من الصور وإن بدت لوهلة مختلفة، لكن يجمعها مع ذلك رابط وحيد هو الواقع الجزائري، وفيما يلي عرض لأهم هذه النماذج.

ثانيا: الشخصيات المرجعية في الرواية:

يعدّ "فليب هامون" من أبرز المنظّرين المعاصرين لمفهوم الشخصية، سعى من خلال دراسته لسلسلة "les rougon macquart" لـ"إميل زولا" إلى وضع قانون سيميائي للشخصية الروائية، وقام أثناء دراسته بعملية تنميط لهذا المفهوم وقسّم الشخصيات إلى ثلاث فئات :فئة الشخصيات المرجعية، وفئة الشخصيات الإشارية وفئة الشخصيات الاستذكارية.[7] وقد وقع اختيارنا في رواية " نوم العادل" على فئة الشخصيات المرجعية، ونعني بها تلك الشخصيات التي تستمدّ وجودها من المرجع الواقعي وتشكّل حلقة وصل بين العالم السردي التخييلي والعالم الواقعي الحقيقي، «تحيل على معنى ممتلئ وثابت حددته ثقافة ما، كما تحيل على أدوار وبرامج واستعمالات ثابتة. إنّ قراءتها مرتبطة بدرجة استيعاب القارئ لهذه الثقافة(...).وباندماج هذه الشخصيات داخل ملفوظ معين، فإنّها ستشتغل أساسًا بصفتها إرساءً مرجعيا يحيل على النص الكبير للإيديولوجيا والكليشيهات أو الثقافة. إنها ضمانة لما يسميه

بارث "الأثر الواقعي"»[8].تندرج ضمن الشخصيات المرجعية شخصيات تاريخية واجتماعية ومجازية وأسطورية[9]، سنحاول الوقوف على ما توفّر منها في الرواية موضوع الدراسة استنادا إلى طرح "هامون".

يمكن تحديد شخصيات "نوم العادل" في ثلاثة عناوين رئيسة تبعا لعلاقتها بالأحداث، وتبعا لقدرتها على اختزال واقع المجتمع القبائلي، إبان الاحتلال الفرنسي للجزائر:

- سلطة الموروث الثقافي وأثرها على الشخصيات المرجعية: يظهر من خلاله موقع العادات والتقاليد في أوساط المجتمع القبائلي والسلطة التي تمارسها على أفراده.
- تمرّد الشخصيات المرجعية على سلطة النظام القبلي: يتضح من خلاله الموقف السلبي للشخصيات من العادات والتقاليد.
- الشخصيات المرجعية وسلطة الآخر(المستعمِر): تتّضح فيه مخاطر السياسة الاستعمارية التي تنتهج سياسة جديدة تستهدف طمس معالم الهوية الوطنية- من خلال تطبيق قاعدة" فرق تسد"-، وموقع الشخصيات المرجعية في سلم سلطة المستعمِر.

1- سلطة الموروث الثقافي وأثرها على الشخصيات المرجعية:

شكّل الموروث الثقافي من العادات والتقاليد والأعراف، مادة أساسية للعديد من الروائيين في إنتاجاتهم الإبداعية، «إذ يعتبر بكلّ ما يحمله من أشكال ومضامين بمثابة الكاشف الوجداني الجماعي للشعوب المتنوعة الثقافات بمختلف أجناسها، كونه يمثّل ذاكرتها الجماعية التي يختزلها في ذهنه ويمارسها عن طريق سلوكه، وتحمله الأجيال الإنسانية في تعاقبها وترابطها»[10]، وتختلف دواعي توظيفه من أديب إلى آخر فقد يكون استثماره عند بعضهم، من أجل تعريف الأجيال المعاصرة بماضي أجدادهم وتراثهم العريق ليثيروا به الإشكال المتعلق بالهوية والانتماء، حفاظا على القومية والهوية الوطنية واللغة من التلف والضياع والزوال، وقد يكون هاجس الكتابة عند البعض الآخر الميدان المفضّل للنقد، خصوصا عندما يصبح الموروث السائد بمثابة العائق الذي يحدّ من حرية الفرد ويمنعه من ممارسة نشاطات وسلوكات عادية تصبح وفقا لقانون العرف خرقا و جريمة لا تغتفر.

نقف في رواية" نوم العادل" على شخصيات اجتماعية عزّزت هذا الجانب -تحيل على نماذج وطبقات اجتماعية معينة ترتبط بفكر الأسلاف وبالموروث من العادات والتقاليد التي تمثّل الاقتداء- أدرجها الكاتب في مسار الحكاية ليشير إلى قرية "إغزر" والسلطة التي تمارسها أعرافها وتقاليدها، بداية بشخصية الأب الذي ظهر في أكثر من موضع تمسكه بنظام الأجداد، من ذلك موقفه من ابنه "أرزقي"

وانزعاجه الشديد مما بدر منه من كلام يمس الشرف القبائلي والعقيدة، خلال الحديث الذي جمعه بأخيه "سليمان" وعمّه "تودارت" على مسمع من شيوخ القرية[11].

يمارس نظام الأجداد تأثيره القسري على سلوكات الأب إلى درجة التعصب له، فيعمي بصيرته خاصة عندما يتعلق الأمر بالعقيدة والتي تشكّل الأساس المتين الذي يجب عدم المساس به بأي شكل من الأشكال، فيطلق على إثر ذلك النار على ابنه "أرزقي"[12]كما أنّ رفض الأب لقضية زواج "سليمان" من "الياقوت" ابنة "رابح أحملات"، عدوّه وفق نظام الصفوف، وقضية الزواج المرتب لـ"مكيوسة" –أرملة "محند"– من أحد أخويه وهو لا يزال حيا[13]والعداوات القديمة التي ورثها، دليل واضح على تمسكه بعادات وتقاليد الأجداد.

تتمّ متابعة المرجعية التي تتحرّك وفقها الأحداث وتتبنّاها الشخصيات بمشاركة الكاتب الذي يبثّها في ثنايا نصوصه والقارئ الذي يتلقاها كذلك، من خلال فكّ شفرات الرسالة المرجعية عبر عمليتي القراءة والتأويل، اللتين تمتدّان من بداية النص إلى نهايته، وهو ما أكّده "فليب هامون" عندما أشار إلى أنّ الشخصية لا تدخل النص بامتلاء دلالي وأنّها تكتسب بطاقتها الدلالية شيئا فشيئا حتى آخر صفحة. كما أنّ مدلول الشخصية لا يتشكّل فقط من خلال التكرير أو من خلال التراكم والتحولات، إنّما يتشكّل كذلك من خلال التقابل، ومن خلال علاقة شخصية بشخصيات الملفوظ الأخرى،[14]وهنا يمكننا الحديث عن الشخصيات المجازية التي يستنتجها القارئ من خلال عنايته بدراسة علاقات شخصيات النص موضوع التحليل ببعضها البعض، حدّدها "فليب هامون" في الحبّ والكراهية[15]وسنعرّج على كلتا العاطفتين لأنّهما مرتبطتان ببعضهما في نص "نوم العادل"، إلاّ أنّنا سنركّز أكثر على العلاقات التي تقوم على عاطفة الكره؛ لأنّها تؤثر بشكل مباشر على العلاقات الأخرى التي تقوم على عاطفة الحبّ وتحدّد مصيرها ويكفي أن نستدلّ على ذلك، بعلاقة الحبّ الفاشلة بين"سليمان" و"الياقوت" ابنة "رابح أحملات" التي لم يكتب لها أن ترى النور لأنّ أباها رفض علاقتها بـ"سليمان" بسبب كرهه لأبيه[16] عدوّه وفق نظام الصفوف.

فالكاتب ابن منطقة القبائل، وخير العالمين بعاداتها وتقاليدها وبالمنطق القبلي الذي تسير عليه لذلك حاول بطريقة فنية جمالية مناقشة بعض الجوانب من واقع المجتمع القبائلي، من خلال حديثه عن العداوات القائمة بين أسرة "حاند أوقاسي" التي ينحدر منها الضحية "تودارت" وأسرة " أزواو آيت واندلوس" التي ينحدر منها الأب وأبناؤه[17]، فقد أثّرت في السير الحكائي العام للرواية وحدّدت مصير

البطل "أرزقي" الذي يمثّل عيّنة من بين عينات كثيرة لجزائريين وقعوا ضحية لسلطة النظام القبلي؛ لذلك أثار الكاتب جريمة قتل "تودارت" ليبيّن للقراء مخاطر سياسة المستعمر الفرنسي الذي حاول فرض هيمنته من خلال التفريق بين الإخوة الجزائريين بإلهائهم بالصراعات والنزاعات، التي كادت تقضي على وحدتهم وجمع شملهم وتَصْرِفُهم عن رؤية الحقيقة التي حجبتها مشاعر الحقد والضغينة، ويكفي أن نستشهد على ذلك بشخصية "محند" الذي يعدّ امتدادًا لهذا الخطّ القديم، لأنّه أقدم على قتل "تودارت" باسم هذه العداوات بن عائلته وعائلة الضحية[18].

ندرج في هذا السياق كذلك شخصية "سليمان" الابن الأصغر، فرغم ما اكتسبه من أفكار جديدة من صديقه "لوناس" طوال فترة عملهما بمزارع المستوطنين-عمّقت تجربته في الحياة وصقلت أفكاره القديمة بأفكار جديدة، وغيّرت نظرته عن العداوات القديمة وعن النظام القبلي،[19] من ذلك فكرة الانتماء إلى الجزائر بدل الانتماء إلى القبيلة- إلاّ أنّه لم يصمد طويلا أمام سلطة والده، وتخلى مكرها عن فكرة الزواج من حب حياته "الياقوت" واقتنع بفكرة زواجه من "الياقوت" الأخرى ابنة "تودارت" تنفيذا لمخطّط اغتيال هذا الأخير[20]، واستجاب بعد ذلك لفكرة الزواج من "مكيوسة" أرملة "محند" الذي ينتظر موته المحتوم[21]. وبذلك يمكننا القول إنّ شخصية" مكيوسة" رغم أنّها لم تلعب دورا في الرواية ولم يرد ذكرها إلاّ في سياق الحديث عن زواجها بـ"سليمان" أو "أرزقي"، وزوجها "محند" لا يزال حيا يرزق، إلاّ أنّها تلفت الانتباه إلى واقع المرأة في منطقة القبائل، فغاية "مولود معمري" ليست الوقوف على عادات وتقاليد المنطقة وحسب، بل نقدها كذلك من خلال إبراز تأثيراتها السلبية؛ خاصة عندما يتعلق الأمر بعادات بالية، تعدّ المرأة ضحية من ضحاياها، حيث تفتقد العديد من النساء في المجتمعات القبلية أدنى شروط الحرية ومن ضمنها الحرية في الزواج، إذ يجدن أنفسهنّ مكرهات على الزواج الذي يخطّط له كبار العائلة، وهو حال "مكيوسة" التي يقرّر مصيرها باسم العرف، لأنّ زواج المرأة من أخ زوجها بعد وفاته -حفاظا على أولادها من اليتم- من تقاليد قرية "ايغزر"[22].

نلاحظ أنّ أغلب الأدوار التي أُلزمت بأدائها الشخصيات في مسارها الحكائي قد ارتبطت بالموروث من عادات وتقاليد وما يُفرض عليها إتباعه بحيث لا تمتلك هذه الشخصيات حرية الاختيار وتجبر على الإتباع والخضوع .

2-تمرّد الشخصيات المرجعية على سلطة النظام القبلي:

يواصل السارد مسيرته السردية التي تعيد كتابة حال ومصير الذوات الجزائرية التي يبدو أنّها تعيش حالة من التناقض يعكسها اختلاف المستوى الفكري والتعليمي الذي أفرزته ظروف معينة، وهنا تبرز شخصية أخرى ذات مرجعية اجتماعية وهي شخصية "الرزقي" الذي يقف في الضفة الأخرى المعارضة لسلطة النظام القبلي التي يمثلها الأب وشيوخ القرية.

وهنا تجدر الإشارة إلى ندرة الشخصيات التي عارضت سلطة الأجداد باستثناء شخصية "لوناس" الذي حمل مستوى فكريا مغايرا، من ذلك فكرته عن الانتماء إلى الجزائر عوض الانتماء إلى القبيلة أو الصفوف التي يوجزها قوله: «أنا جزائري»[23]. رغم ما يتمتع به "الوناس" من مستوى فكري ناضج إلاّ أنّ حاله لا يختلف كثيرا عن حال صديقه "سليمان "، فرغم تشبّع كلّ منهما بهذه الأفكار المناقضة للنظام القبلي، إلاّ أنّ ذلك لا يؤهّل كلاّ منهما للانخراط في هذا المستوى الذي يعيّن تمرّد الشخصيات على الموروث السائد؛ لأنّ هذه الأفكار اقتصرت على الجانب النظري فقط ولم ترق إلى المستوى التطبيقي الذي تتمرّد فيه هذه الشخصيات على السائد وتعلن رفضها بشكل صريح.

تفتح شخصية "الوناس"و "سليمان" باب النقاش حول الضغوطات النفسية التي تعايشها الشخصيات في ظل التقاليد المتوارثة والأعراف الاجتماعية في طقوسها ومحظوراتها، حيث لا يمتلك العديد من الجزائريين القدرة على تجاوز محظورات البيئة، فلا يكون أمامهم من مفر سوى الكبت؛ لأنّ رغباتهم تصطدم بالواقع وتتعارض معه، وهو ما يوضّحه قول السارد ناقلا ما يجول في خاطر "الوناس" بعد أن أخبره أبوه بقرار زواجه من "الياقوت" ابنة "تودارت"، بعد أن أصبح الأمين الجديد في "إغزر":« الرزقي تجنّد في الجيش، لكنّه على الأقلّ تحرّر من كلّ هذه الإكراهات التي ضيّقت الخناق على رجال ونساء إيغزر»[24].

ويشكل "أرزقي" –الابن الأوسط– كذلك واحدا من بين الشخصيات المرجعية التي عملت على التحرّر من أغلال المجتمع ورواسب الماضي، والانعتاق من نواميس الأخلاق وما تمثله من محرّمات من خلال ما عبّر عنه من مواقف جريئة، وما أتاه من أفعال وسلوكات عزّزتها المدرسة الفرنسية والأساتذة الفرنسيون الذين تعلّم على أيديهم، وهو ما أثر كثيرا على طريقة تفكيره التي لم تعد تنسجم وطريقة تفكير أهل قرية "إغزر" لذلك تبدو شخصيته مناقضة تماما لشخصية الأب، إذ نلمس في أكثر من موضع في مسار الحكاية قدرته على المجاهرة بالرأي المخالف، من ذلك ما بدر منه من كلام أثناء تبادله أطراف الحديث مع أخيه سليمان وعمّه " تودارت"، خاصة فيما تعلّق بقضية الشرف القبائلي واستهزائه به ساخرا

من سذاجة تفكيرهم بقوله:«الشرف مجرد مزحة»[25]بالإضافة إلى ما بدر منه من قلة أدب، عندما ردّ على الشيخ –الذي سمع تعليقه عن الشرف– قائلا: «لا أبالي بالشيطان، ولا بالرب»[26].

يتمادى "أرزقي" في تصرفاته هازئا هذه المرة كذلك بوالده و بمعتقداته وطريقة تفكيره متأثرا بالثقافة الفرنسية التي يبدو أنها طبعت طريقة تفكيره الجديدة، خاصة فيما يتعلق بالعقيدة وتشكيكه في وجود الله سبحانه وتعالى، أو بالأحرى عدم الاقتناع بوجوده، وهو ما يوضحه قوله:«...لكن قرأت في الكتب (...) أنّ الربّ لا وجود له»[27]و هو ما أثار جنون الأب الذي يطلق النار عليه تحت وطأة ثورة غضبه[28]. يغادر "الرزقي" على إثر ذلك قرية "إغزر" قاصدًا خالته التي تقطن بقرية "تازغا"، ثمّ يتّجه إلى الجزائر العاصمة ليواصل دراسته، ثم يجنّد بعد ذلك في صفوف الجيش الفرنسي[29].

كانت ثورة "أرزقي" على الموروث السائد في أوجّها، وبدا ذلك واضحا في الحوار الذي جمعه بوالده عندما قام بمعاتبته على تصرّفه الطائش مع شيوخ القرية. يقول "أرزقي":«...الله نفسه لا يستطيع أن يفعل شيئا ضدّ المنطق(...)لكن ما الفائدة من التوضيح لك؟المنطق الذي لا تعرف ما هو:كل حياتك منافية له، حياتك بلا معنى، مجرّد سخافة[30]. يجيبه والده قائلا:«أنا والدك.بإمكانك أن توضّح لي ما يعنيه المنطق الخاص بك»[31].يردّ عليه "أرزقي" بقوله:«ليس المنطق الخاص بي، إنّه منطق الجميع(...)باستثناء سكان إغزر»[32].

رغم اقتناع "أرزقي" بأنّ الصراع الذي يخوضه مع سكان قرية "إغزر" غير متكافئ ويتطلّب مسارًا نضاليا طويلا لتغيير ذهنيّتهم التي طبعت على نماذج أولية متكرّرة، إلاّ أنّه لم يتراجع عن موقفه ولم يندم على ما بدر منه كتصرّف مع شيوخ القرية ومع والده؛ حيث يقول لصديقه "مدور" قبل التحاقهما بالثكنة العسكرية إنّ الطلقة النارية التي تلقاها من والده، «كانت هبة من السماء»[33]، بل إنّ سلطة المجتمع بتقاليده البالية ضيّقت الخناق عليه فشبّهها بالموت البطيء الذي يسري في جسده ويحول دون أدائه لدور مهم في الحياة،[34] فالمستوى الفكري الذي وفّره له تعليمه جعله مقتنعا بأنّه لن يحقق أدوارا مهمة في المجتمع، إلاّ إذا خلخل البنية الذهنية المتحجّرة من خلال الثورة عليها، فالثورة في نظره أساس التغيير وأساس تقدّم المجتمعات.

3 –الشخصيات المرجعية وسلطة الآخر(المستعمِر):

نقف في هذا المستوى على شخصيات مرجعية تراوحت بين جزائرية وفرنسية؛ لأنّ الآخر الذي تواجهه الذات لا يتمثّل بالضرورة في المستعمر فقط، إنّما في الموالين له كذلك جزائريين كانوا أم فرنسيين

أو بالأحرى المتواطئين معه؛ لأنّه يليق أكثر بوصف ما اصطلح على تسميته بالخونة للإشارة إلى أشخاص تنكروا لذاتهم ولوطنهم وأخذوا بيد المستعمر، فكانوا له سندا في تنفيذ مخطّطه وتفعيل سياسته القذرة، التي استهدفت تشتيت شمل أمة واحدة، فكان سلاحه في ذلك شعار "فرّق تسد"، الذي حمل لواءه بعض الجزائيين الذين سايروا المستعمر من أجل قضاء مصالحهم الخاصة، التي يبدو أنّها كانت في نظرهم أهمّ من هويتهم وحرية أخوانهم.

مثالنا على هذا الصنف في "نوم العادل، "شخصية "تودارت" بمرجعيته الاجتماعية التي حدّدها وقوفه إلى جانب المستعمر في أكثر من موقف، من ذلك ما جاء على لسان السارد الذي نقل لنا رأي "تودارت" في النقاش الذي جمعه ب"سليمان" و"أرزقي" في المقهى حول مصير الناس بعد انتهاء الحرب العالمية، والفئة التي يأملون في انتصارها إذ أظهر الكلّ رغبتهم في انتصار الألمان باستثناء "تودارت" الذي انتصر للفرنسيين بقوله:«قبلهم لم نملك أطباء، لا طرق، لا مدارس، عشنا مثل حيوانات الغابة: يأكل القويّ منا الضعيف»[35]، ويظهر ولاءه للمستعمر بشكل خاص في تآمره مع الحاكم الفرنسي (رئيس البلدية في قرية "إغزر") ضد ابن عمّه(الأب)، حيث أعلمه بالمشاكل الشخصية القائمة بينهما وبالعداوات القديمة بين عائلتيهما[36]، والتي شكّلت الرهان الأساس الذي كفل للحاكم نجاحه في مخطّطه وهو ما سنوضّحه لاحقا.

يعري الكاتب الواقع الاجتماعي الجزائري في فترة الاحتلال الفرنسي من خلال شخصية "تودارث" ليشير به إلى ظهور طبقة اجتماعية كانت تحاول الصعود ولو على حساب مبادئها، حيث حصلت هذه الفئة على العديد من الامتيازات، فـ"تودارت" يصبح الأمين الجديد للقرية والمسؤول عن التموين في البلدية[37]وغيرها من الامتيازات التي وفّرها له وقوفه إلى جانب المستعمر.

غير أنّ هذا لم يمنع من ظهور فئة أخرى تمسّكت بهويتها ووطنها، ورأت في موروث أجدادها من القيم والعادات والتقاليد السبيل الوحيد للحفاظ على هويتها، وهذا ما نلمسه في شخصية الأب الذي تخوّف كثيرا من ثقافة الآخر ومن تأثيرها على أبنائه بالأخصّ ابنه "الرزقي" الذي تأثّر كثيرا بالمدرسة الفرنسية التي كان يتلقى تعليمه فيها، حيث عاد ذات يوم من "تازغا" بشعر طويل منتعلا أحذية رياضية[38]، وهو ما يتنافى مع القواعد الأخلاقية التي نشأ عليها سكان قرية "إغزر"، لأنّهم تعوّدوا على الحذاء المصنوع من جلد الثور.

بدا موقف الأب السلبي من الآخر أكثر وضوحا في الرسالة التي كتبها لأبنه "سليمان" يقول فيها:«إنّي أفضّل أن أراك هنا، لأنّي بذلك سوف أقتنع أنّك ستستمر مثل أجدادك في التمييز بين الخير والشرّ، ولن تخاطر يوما بالعودة إلى "إغزر" مصطدما بكلّ شيء كأعمى، لأنّك فقدت النور(...) تدوس كلّ شيء بقدميك لأنّك باتصالك مع الفرنسيين سوف تصبح مثلهم، ولن تعرف سوى شهواتك»[39].غير أنّ الأب لم يصمد طويلا بهذه المواقف أمام سلطة خبيثة استهدفت تشتيت شمل الشعب وضرب أواصر وحدته، وعرفت سبيلها إلى ذلك، لأنّه- وللأسف- سوف يقع ضحية للعبة الحاكم القذرة التي استهدفت أطرافا عدّة حتى الضحية "تودارت" نفسها، حيث تدفعه العداوات القديمة بين أسرته وأسرة "تودارت" إلى التخطيط لمقتله[40] انتقاما منه على تآمره مع الحاكم الفرنسي بإعلامه بالخلافات العائلية القائمة بينهما وبذلك يتواطأ لا إراديا مع الحاكم ويعينه في مخطّطه ويدخل أطرافا أخرى مشاركة فيه دون أن يعي ذلك، عندما يرغم أبناءه على قتل ابن العمّ "تودارت".

شاركت عدّة شخصيات في جريمة قتل "تودارت"- بتواطئها العفوي- من قريب أو من بعيد لكن "محند" هو الوحيد الذي مارسه فعليا[41]، لذلك يبدو حضوره مفاجئا، لكنّه يسهم في تغيير مسار الحكاية، فرغم أنّ شخصيته ثانوية ولم يذكره السارد إلاّ ليشير إلى إصابته بمرض السلّ جرّاء الاستغلال الذي تعرّض له في المصانع الفرنسية أو للحديث عن مصير زوجته وأولاده بعد وفاته[42]، إلاّ أنّه يسهم في تحديد مصير البطل "أرزقي" الذي تلتصق به تهمة قتل "تودارت" ويدخل السجن ظلما[43]، فتتعمّق أزمته ويتغيّر وعيه ونظرته إلى الآخر- بعدما كان متأثّرا بثقافته إلى حدّ الذوبان فيها، خاصة بعد أن يصطدم بالواقع المرّ وينكشف أمامه زيف شعارات العدل والمساواة التي طالما تغنّى بها أساتذته الفرنسيون.

تلعب الشخصيات الثانوية إذن دورا في نموّ الحدث وبلورة معناه و تؤثر في غيرها من الشخصيات وهو ما بدا واضحا في شخصية "أرزقي" الذي يشهد تحوّلات عدّة في مسار حياته، فبطل "مولود معمري" يخوض معركة صراعه مع السلطة التي مثّلتها شخصيات عديدة، بمرجعيتها التاريخية التي تحيل إلى سنوات الذلّ والضياع التي عاشها الشعب الجزائري في ظلّ الاستعمار الفرنسي، وهنا يكمن دور الروائي في نقل الشخصية الروائية من الواقع الحقيقي إلى الواقع الروائي الذي يتلاءم معها، أي من عوالم محدودة بحدود الزمان والمكان إلى عوالم رحبة لتصبح نماذج بشرية عامّة[44] تحيل على معنى حدّدته ثقافة الكاتب وانتماؤه إلى الواقع الجزائري، وجهود القارئ الذي يتفاعل مع البنية النصية ويحمّلها بالدلالات المختلفة انطلاقا من خلفيته المرجعية واستيعابه للواقع الذي ينهل منه الكاتب، خاصة القارئ الذي عانى

من وطأة الاستعمار أو من مخلّفاته؛ لأنّ التجربة الاستعمارية تظلّ حيّة في ذاكرة الشعوب على مرّ الأزمان.

ونصّ "نوم العادل" يجسّد هذه التجربة فتمثل أمامنا كمشاهد حيّة تنقل حالة الإحباط والتمزّق التي تطال أبناء القرية بسبب الظروف القهرية التي يسلّطها المستعمر، والنمط الأثير للمقهور عند "مولود معمري" هو المثقف الذي جّسدته شخصية "أرزقي" هذا الأخير الذي يصطدم بشخصيات اختزلت في ثناياها الموقف السلبي للآخر من الذات والسلطة التي يمارسها عليها، بداية بالثكنة العسكرية التي تجنّد فيها "أرزقي" حيث كانت القوانين السارية فيها تقوم على نوع من العنصرية، إذ يتمتّع المجنّدون من أصل أمريكي بامتيازات عديدة مقارنة بالمجنّدين المنحدرين من أصل جزائري كالأسبقية في دخول المطعم وتولّي المهام العسكرية وتوزيعها بالإضافة إلى الارتفاع الملحوظ في الراتب الشهري. وأوّل شخصية جسّدت هذا النظام العنصري هي شخصية الرقيب المسؤول في مطعم الثكنة الذي لم يكن يراعي الأسبقية في دخول المطعم، حيث كان يتجاهل الجزائريين الذين حضروا أوّلا وينادي دائما على الأوروبيين ليكونوا أوّل من يدخل وإن لم يحضروا بعد وهو ما أثار غضب "الرزقي" الذي احتجّ على إثر ذلك، لكن الرقيب علّق عليه بقوله «إنّ القوانين تفيد بأسبقية الأوروبيين»[45].

يصطدم "الرزقي" بعدها بالنقيب "ريكاردو" عندما التحق جندي أوروبي جديد يدعى "لومارشان" بالكتيبة حيث تقدّم "الرزقي" ليقدّم له الكتيبة كما اعتاد أن يفعل دائما، لكنّه أمره بالعودة إلى الصف ليقدّمها له "لومارشان"، ثمّ وبّخه بعد ذلك لمخالفته القوانين قائلاً: "في حالة وجود ضابطين يحملان نفس الرتبة العسكرية، على الضابط الأهلي أن يطيع أوامر الضابط الأوروبي"[46]، غير أنّ "الرزقي" يحتجّ على ذلك بالقرار الذي أصدرته حكومة الجنرال "ديكول" الذي يعتبر بعض الجزائريين فرنسيين مثلهم مثل الفرنسيين الآخرين، لكنّ النقيب يتجاهله ببرودة تامّة بقوله "ديكول لا أعرفه"[47].

تشكّل شخصية "ديكول" إحدى الشخصيات المرجعية التاريخية التي دخلت النص بامتلاء دلالي يحيل إلى الوجود الحقيقي المثبت، فبمجرّد اندماجها داخل المسار الحكائي تشتغل كنقطة إرساء مرجعي لأنّها تعيش في ذاكرة القارئ الذي يستحضر كلّ المعارف الخاصة بها أثناء عملية القراءة والتأويل من أجل الإمساك بالمضافات التي يأتي بها النص[48]، وهو ما ينطبق على شخصية "ديكول" التي أدخلها السارد في المسار الحكائي بشكل عرضي، وجاء ذكرها على لسان "أرزقي" بغرض إثبات الوقائع بإثبات شخصياتها وأماكن وزمن حدوثها، كونه من الشخصيات السياسية الفرنسية التي تركت بصماتها في تاريخ

الجزائر، فلنا أن نتذكّر فقط الأمرية التي أصدرها في 07 مارس 1947 المتضمنة إصلاحات فرنسية متعلّقة بالجزائريين من بينها إقرار المساواة بين الجزائريين والفرنسيين، وهذا ما جعل "أرزقي"- الذي آمن بشعارات المستعمر ووعوده- يعترض على قضية التمييز بين الأهالي والأمريكيين بالقرار الذي أصدره "ديكول"، أمّا تظاهر النقيب بعدم معرفته بـ"ديكول" فيحمل في ثناياه النظرة السلبية للدّول الاستعمارية اتجاه الدول المستعمرة وهي نظرة تشوبها دلالات الدونية والاحتقار، إذ لا يحقّ للشعوب المغلوبة على أمرها أن تطالب بحقوقها المشروعة وإن تجرّأت على ذلك وجب إسكاتها وقوبلت بالقمع.

يسجن "أرزقي" على إثر ذلك عدّة مرّات، بسبب احتجاجه المتكرّر على النظام العنصري الذي مثّلته الشخصيات سالفة الذكر وغيرها، وإن لم يذكرها الكاتب دائما بأسمائها وإنّما اكتفى أحيانا بتقديمها من خلال الرتب العسكرية والوظائف التي تشغلها؛ لأنّها كفيلة برسم صورة الآخر-السلطوي والمستبدّ- التي تستمدّ مرجعيتها من الواقع الذي عايشه الجزائريون الذين تجنّدوا في صفوف الجيش الفرنسي ضدّ النازية الألمانية، خصوصا دعاة الإدماج قبل أن تنكشف أمامهم حقيقة المستعمر الفرنسي وتتزعزع ثقتهم به و"أرزقي" مثال حيّ لهذه الفئة، حيث يقول للشرطي الفرنسي الذي سأله عن سبب عدم عودته إلى الجزائر بعد انتهاء الحرب: «من أجل البقاء في فرنسا(...) لقد قصدتها من أجل محاربة هتلر. ومن أجل الحرب»[49].يجيبه الشرطي« والهدنة؟ ألم يوقع هتلر الهدنة؟»[50]. يجيبه "الرزقي"«نعم لقد وقعت الهدنة لكن ليس بالنسبة لي..لقد وقعت (...) من أجل كلّ شيء لكن ليس بتاتا بالنسبة لي».[51]

نقف على شخصية مرجعية تاريخية أخرى دخلت بدورها المسار السردي بشكل عرضي ومفاجئ وهي شخصية "هتلر" التي ذكرها السارد على لسان "أرزقي"، ليعري من خلالها الواقع وينقله بزمانه ومكانه وشخصياته وحيثياته، وهو ما تثبته الفترة التاريخية التي يستحضرها القارئ من الذاكرة الجزائرية، عندما أسهم الجنود الجزائريون في الحرب ضد جيوش "هتلر" بما يساوي تقريبا عدد الجنود الفرنسيين، حيث كان أمل الجزائريين في الاستقلال التام عن فرنسا كبيرا، وثقتهم في وعود قادتها عمياء خاصة بعد أن ذاقوا مرارة استعباد الألمان لبلدهم، لكن وللأسف يصطدم الجزائريون بالواقع الأليم الذي تتفاقم قسوته مع تزايد وعي الجزائريين بوطأته واستحالة تغيير النظرة السلبية لفرنسا اتجاه الجزائر؛ حتى وإن كلّفتهم هذه الثقة تضحيات عديدة ذهبت للأسف سدى، لكنّها -رغم ذلك- فتحت أعينهم على الحقيقة المرّة التي أعادت تشكيل أفق انتظار جديد بالنسبة للقارئ.

وهو ما نلمسه في "أرزقي" الذي عمد إلى إحراق أمهات الكتب للمؤلفين الكبار الذين تأثّر بهم –في الحفل الذي أقامه الضباط في الثكنة بمناسبة تنقّل الفيلق إلى المرسى الكبير– بعدما اكتشف أنّ المبادئ والشعارات التي حفظها فيها بشغف وتعلّمها على يد الأساتذة الفرنسيين، وبالأخصّ أستاذه "بواري" لا وجود لها على أرض الواقع، حيث أمر صديقه "زروق" أن يحضر له الصندوق الذي وضع فيه كتبه، فتح الصندوق وشرع في إحراقها الواحد تلوى الآخر:«العقد الاجتماعي.الخطابات حول العنصرية العقاب، جوريس. أوجست كانت ها !ها ! سيداتي وسادتي يا لها من خدعة ...» [52] ، وكان يتلذّذ بمنظر الكتب وهي تحترق وهو المشهد الذي وصفه الكاتب بطريقة فنية رائعة، حيث بدأ الغلاف الذهبي لكتاب "مونتيني" ينتفخ ثمّ يسودّ قبل أن تلتهمه النار وفجأة كبرت الشعلة وأثارت حولها دائرة من الأشباح تتراقص فوقها ظلال...وكان اللّهب يداعب ببطء أوراق الكتب، منتقلا على مهل من موليير إلى شكسبير إلى هوميروس ومونتيسكيو وآخرين. [53] ولم يكتف بإحراق الكتب، إنّما بال عليها كذلك حتى يشفي غليله[54].

وردت في الرواية إذن هذه الشخصيات ذات المرجعية الفكرية، وجاء ذكرها على لسان "أرزقي" الذي تأثّر كثيرا بها وبأفكارها عن العدل والحرية والمساواة إلى حدّ التقديس، لأنّ العبرة ليست دائما بالذوات بل بما تمثّله كذلك من أفكار، وقد تبيّن لـ"أرزقي" بعد الظروف القاسية التي عاشها وجود الأفكار التي تعلّمها في كتب المؤلفين السابقين في عالم المثل فقط وعدم جدواها في العالم المادي الواقعي فكان وقع ذلك في نفسه شديدا وخيبة أمله لا توصف، فلم يملك من شيء إلاّ عود الثقاب الذي وجد فيه متنفّسا يخفّف من حدّة صدمته، فعبّر بإحراقها(تلك الكتب) عن انتقامه من أصحابها وخيبة أمله فيما كان يبثونه فيها من مبادئ وآمال، ظلّ متمسّكا بها ومخدوعا بسحرها لفترة طويلة.

نقف في هذا المستوى كذلك على شخصيات مجازية معبّر عنها من خلال الحب والكره يظهر من خلالها موقف الآخر من الفرد الجزائري والسلطة التي يمارسها عليه، و نستدلّ على ذلك بعلاقة الحبّ بين "أرزقي" و الفتاة الفرنسية " إلفريد " التي أنقذها هي وأمّها أثناء الحرب العالمية الثانية[55]، جمعتهما الصدف مرّة أخرى بعد انتهاء الحرب، توطّدت العلاقة بينهما وأحبّا بعضهما، لكن سلطة الآخر تقف في وجه "أرزقي مرّة أخرى وتحول بينه وبين تحقيق أحلامه، لأنّ عائلة " إلفريد " نسيت أفضاله عليها ونسيت كذلك خدمات الجزائريين وتضحياتهم في سبيل الفرنسيين أثناء الحرب، فتقرّر باسم التمييز العنصري إنهاء

هذه العلاقة بعد أن علمت بجنسيته الجزائرية، وهو ما يوضّحه قول "موريير" والدة إلفريد: «ضحكنا كثيرا بعد رحيلك حين علمنا من أحد زملائك أنّك جزائري، اعتقدنا قبل ذلك أنّك مثل الآخرين[56].

غير أنّ موقف عائلة "موريير" بالإضافة إلى المعاملة السيئة التي تلقاها "أرزقي" في الثكنة لا يقارنان بالظلم الذي سيتعرّض له إثر عودته إلى قرية "إغزر" بعد الرسالة التي تلقاها من أخيه سليمان يدعوه فيها للعودة حتى يمنع أباه وأخاه "محند" من تنفيذ مخطّطهما الإجرامي، لأنّ الأيام–وللأسف– لم تمهله الوقت الكافي ليحول دون ذلك، حيث أقدم "محند" على قتل "توادرث" بعد فترة قصيرة من عودة "أرزقي" إلى القرية، ثمّ مات بعد ذلك[57]، فالتصقت تهمة القتل ب"أرزقي" وبأبيه وبأخيه "سليمان"، ثمّ سيقت كلّ الأدلة التي تثبت إدانة "أرزقي" كمتّهم أوّل، من ذلك دفتر يومياته الذي عثر عليه في جيبه، إذ كان يسجّل فيه أحداثا و تفاصيل كثيرة من حياته، من ذلك قضية التزوير التي ورّطه فيها أعضاء الحزب أثناء انخراطه في العمل الحزبي و رسالة أخيه "سليمان" الذي أشار فيها إلى قضية قتل "توادرث".

استغلّت كلّ هذه الأدلّة ضدّ "أرزقي" ولم يستمع القاضي إلى دفاعه عن نفسه، بل اقتنع بالحجج التي قدّمها النائب العام الذي استطاع بدهائه إقناع المحلّفين بإدانته، وحتّى مستواه التعليمي الذي اكتسبه على يدّ الأساتذة الفرنسيين وسنوات الحرب ضدّ "هتلر" لم تحتسب لصالحه، بل زادت وضعه سوءً وحكم عليه في الأخير بعشرين عامًا سجن[58].

يمكننا القول إنّ الشخصيات المجازية التي جسّدتها عائلة "موريير" بالإضافة إلى الشخصيات التاريخية المتمثّلة في الشرطي والقاضي والنائب العام والمحامي «استمدّت وجودها من مكان و زمان معيّنين وانصهرت في بنية الكاتب الفكرية الممزوجة بموهبته متشكلة فوق الفضاء الورقي الأبيض، لتسهم في تكوين بنية النص الروائي(الدال) وتنجز وظيفتها المسندة إليها تأليفيا وتعكس بعلاقتها مع البنى الحكائية الأخرى»[59] الواقع الجزائري إبان الاحتلال الفرنسي للجزائر وما يعتمل فيه من تناقضات–خاصة وجود فئة من الجزائريين آمنت بقضية الاندماج في صفوف الفرنسيين–والموقف السلبي لحكّام فرنسا من المواطنين الجزائريين الذي لم تزعزعه حتّى تضحيات العديد منهم في الحرب ضدّ جيوش "هتلر".

يعكس إذن موقف عائلة "إلفريد" من علاقتها بـ"أرزقي" وتجاهل القاضي والنائب العام والمحامي لكلّ ما يبعد الشبهة عن "أرزقي" ويحميه من ظلمة السجن، عدم إقرار فرنسا بالحقّ المشروع للجزائريين في الحرية التي تمّ اغتصابها بالقوة، وهذا ما يستنتجه القارئ بعد إتمامه قراءة نص "نوم العادل"، لذلك وبالنظر إلى الفترة التي صدرت فيها الرواية أي بعد سنة من اندلا ع الثورة التحريرية، يمكننا القول إنّ الكاتب

أحسّ–على الأغلب– بقرب اللّحظة التي ستقلب الموازين وتعيد العدل إلى نصابه، حيث ختم روايته – على لسان "أرزقي"– بعبارات نستشف من ورائها نفحات من الأمل مبشرة بصبح جديد وبإشراقة جديدة، وهو خلف قضبان السجن بعد أن حكم عليه بعشرين عاما سجنا: «إنه شيء جيد، على أية حال أن يتبع نوم العدل نوم العدالة، لكن ما أهمية نوم ليلة أو يوم بالنسبة إلي، أو إلى الآخرين، بل ما أهمية نوم عام. إنّ الموت وحده هو الذي لا نستيقظ منه.إنّني أسمع مفاتيح السجان الذي لا بد أنه قادم لكي يفتح لي»[60].

كانت نهاية البطل "أرزقي" مأساوية في ظاهرها لكنها رمزية في ثناياها، لأنّ الكاتب تقصّد على الأرجح من خلال هذه النهاية تحريك النفوس الغافلة من أبناء وطنه لينبّههم إلى أنّ السبب الحقيقي لوصول "الرزقي" إلى هذه الحالة هو الاستعمار الفرنسي، الذي زرع بذور الفتنة بين إخوة كان بإمكانهم أن يلتئم شملهم ويجتمعوا، وتوحّدهم هوية واحدة ومصير وهدف واحد يمنع بأيّ شكل من الأشكال الشتات الذي آلوا اليه أخيرا.

الخاتمة والنتائج:

نخلص في الأخير إلى أنّ شخصيات نص "نوم العادل" اختزلت على تعدّدها ما يعتمل في المجتمع القبائلي من تناقضات في فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر، فاستقت مرجعيتها من هذا الواقع وعبّرت في مجملها عمّا يعانيه سكان منطقة القبائل من تمزّق بسبب إكراهات الموروث الثقافي المحلّي وإلزامات المستعمِر الفرنسي الذي حاول بسط نفوذه من خلال التفريق بين أبناء الأمّة الواحدة.

توصلنا من خلال دراستنا إذن إلى مجموعة من النتائج التي يمكن أن نجملها في النقاط الآتية:

–اعتمد "مولود معمري" في بناء شخصيات عالمه الروائي على مرجعية واقعية تراوحت بين تاريخية واجتماعية ومجازية، ولم نقف في تحليلنا على شخصيات ذات مرجعية أسطورية؛ لأنّ الرواية تستقي مشاربها من الواقع والتاريخ.

–رواية"نوم العادل" ترجمان حيّ لواقع المجتمع القبائلي غداة الاحتلال الفرنسي للجزائر، والمنطق القبلي الذي تسير عليه الأغلبية الساحقة.

–عكست شخصيات الرواية ما يعتمل في المجتمع الجزائري من تناقضات، وعبّرت عن موقف الجزائريين من الفرنسيين، خصوصا دعاة الإدماج قبل وبعد أن تبيّنوا عدم جدوى القيم والمبادئ التي طالما تغنى بها

الفرنسيون، كما عبّرت عن الموقف السلبي لفرنسا من الجزائريين، رغم كفاحهم إلى جانبهم في الحرب ضدّ ألمانيا.

-حاول الكاتب تجاوز حدود الواقع إلى الخيال، إلاّ أنّه لم يقطع صلته تماما به، حيث تماسّت المرجعية الواقعية بمتخيله السردي، لتسائل فترة من فترات الوجود الفرنسي بالجزائر بزمانه ومكانه وشخصياته، غير أنّه لا يقف عند حدود التماسّ الآلي لمعطيات الواقع، إنّما يتعدّاه إلى تعريته وتشريحه من خلال الوقوف على بعض جوانبه السلبية، وإبراز تأثيراتها على أبناء أمته من أجل توعيتهم وفتح أعينهم على الحقيقة التي كان يجهلها الكثيرون عن المستعمر الفرنسي، كما يقدّم حلولا لإعادة تشكيل هذا الواقع وهو ما شهدناه من خلال عبارات بطله "أرزقي"- وهو خلف قضبان السجن- التي نستشفّ من خلالها أنّ الظلم لا يتغيّر من تلقاء نفسه، إنّما بالثورة عليه كأساس منطقي للتخلص من رواسب وأغلال القهر والذلّ التي كرّسها المستعمر الفرنسي.

هوامش:

[1] ينظر، محمد معتصم، بناء الحكاية والشخصية في الخطاب الروائي النسائي العربي، دار الأمان للطباعة والنشر والتوزيع المغرب، ط1، 2007، ص166.

[2]- ينظر، بن جمعة بوشوشة ، الرواية النسائية المغاربية، المغاربية للطباعة والنشر، تونس، ط1، 2000، ص148.

[3]- بشير إبراهيم أحمد، تنوع الشخصية في رواية الطريق إلى عدن لعمر الطالب، مجلة أبحاث، الموصل، 2014، ص405.

[4]- ينظر، أحمد زين الدين، أصوات سردية، مقالات في الأدب الروائي، بيسان للنشر والتوزيع، لبنان، ط1، 2017، ص ص19-20.

[5]- المرجع نفسه، ص14.

[6]- شرحبيل المحاسنة، نماذج الشخصيات في روايات مؤنس الرزاز، مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب، المجلد 9، العدد 2 2012، ص796.

[7] - ينظر، فليب هامون، سيميولوجية الشخصيات الروائية، تر: سعيد بنكراد، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، ط1 2013، ص14.

[8] - المرجع نفسه، ص ص35-36.

[9] - ينظر، المرجع نفسه، ص35.

[10]- سيد أحمد سماش ، عبقرية توظيف التراث، ميلاد المسرح الجزائري، مجلة الفكر المتوسطي، العدد 11، جوان 2016 ص189.

[11]-Voir, Mouloud MAMMERI, le sommeil du juste, El Othmania, Alger, p8.
[12]- Ibid, p-p 8-11.
[13]- Ibid, p15.
[14] - ينظر، فيليب هامون، سميولوجية الشخصيات الروائية، تر: سعيد بنكراد، ص42.
[15] - ينظر، المرجع نفسه، ص35.
[16]-Voir, Le sommeil du juste, p65.
[17]- Voir, Ibid, p22.
[18]- Voir, Ibid, p157.
[19]- Voir, Ibid, p51.
[20]- Voir, Ibid, p58.
[21]- Voir, Ibid, p143.
[22]- Voir, Ibid.
[23]- Voir, Ibid, p50.
[24]- Voir, Ibid, p57.
[25]- Le sommeil du juste, p8.
[26]- Ibid.
[27]- Ibid, p10.
[28]- Voir, Ibid, p11.
[29]- Voir, Ibid, p79.
[30]- Ibid, p9.
[31]- Ibid.
[32]- Ibid.
[33]- Voir ibid, p79.
[34]- Voir ibid, pp79-80.
[35]- Ibid, p7.
[36]- Voir, Ibid, p16-21.
[37]- Voir, Ibid, p58.
[38]- Voir, Ibid, pp12-13.
[39]- Ibid, p53.
[40]- Voir, Ibid, pp58-59.
[41] - Voir, Ibid, p157.
[42] - Voir, Ibid, pp14-15.
[43]- Voir, Ibid, p170.
[44]- هداية مرزق ، الشخصية الروائية عند الطاهر وطار، رسالة لنيل درجة الماجستير، جامعة الجزائر، معهد اللّغة والأدب العربي، 1987/1986، ص15.
[45]- Le sommeil du juste, p86.

[46]- Ibid, p88.
[47]- Ibid.
[48]- فيليب هامون، سميولوجية الشخصيات الروائية، تر: سعيد بنكراد، ص14.
[49]- Le sommeil du juste, p170.
[50]- Ibid, p171.
[51]- Ibid.
[52]- Ibid, p99.
[53]- Voir, Ibid, p100.
[54]- Voir, Ibid, p101.
[55]- Voir ibid, pp101-108.
[56]- Ibid, p121.
[57]- Voir, Ibid, p157.
[58]- Voir, Ibid, pp169-173
[59]- أحمد مرشد ، البنية والدلالة في روايات إبراهيم نصر الله، المؤسسة العربية للدراسات والنّشر، لبنان، ط1، 2005 ص ص35-36.
[60]- Le sommeil du juste, Ibid, p174.